جمهورية مصر العربية
جامعة الزقازيق
المعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم

مجلة
حضارات الشرق الأدنى القديم

دورية علمية محكمة

http://www.east.zu.edu.eg

الزقازيق

العدد الثانى – السنة الثانية– أكتوبر ٢٠١٦ م–الجزء الأول

رقم الإيداع ١٨٤٣٥ - الترقيم الدولى (٥٣٣٥ - ٢٠٩٠)

مطابع جامعة الزقازيق

عدد خاص بأبحاث المؤتمر العلمي الدولي

حضارات الشرق الأدنى القديم ومؤثراتها عبر العصور

الذى أقيم خلال الفترة من ١٣–١٥ مارس ٢٠١٦

بالمعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم–جامعة الزقازيق

بالتعاون مع كلية التربية الأساسية جامعة بابل

أثر حضارات العراق القديم في مفاهيم علم التاريخ وفلسفته

أ.د. جميل موسى النجار
كلية التربية الأساسية
الجامعة المستنصرية

أثر حضارات العراق القديم في مفاهيم علم التاريخ وفلسفته

أ.د. جميل موسى النجار

كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية

أولاً: التاريخ وفكر الانسان... تلازم مبكّر

مثّل التاريخ (History) جزءاً من مراحل الوعي المعرفي الأولى للإنسان وتطلعاتها نحو إدراك حقيقة الكون والحياة، ذلك أن وعي الإنسان بذاته وطبيعة أفعاله، لا تقتصر على الفعل الحاضر فحسب بل تتعداه إلى ما حدث منه في الماضي أيضاً، ومن ثم يمكن القول إن التاريخ كان وما يزال معرفة ملازمة لفكر الإنسان وطبيعته. وقد مرت هذه العلاقة الوثيقة بين الإنسان والتاريخ بمراحل متعددة تطورت خلالها تلك المعرفة المتناغمة مع الطبيعة الإنسانية من صورتها الشفاهية الحسية إلى فضاء رحب بلغ فيه التاريخ مرحلة العلم، وارتقى معه الفكر التاريخي ليلتحم بالفكر الفلسفي ساعياً لحل مشاكل التاريخ كعلم، بل مشاكل البشرية من خلال (فلسفة التاريخ)، كما حلم بذلك الفيلسوف البريطاني روبين جورج كولنجوود.[١]

كانت الرواية الشفهية هي الصورة البدائية الأولى للمعرفة التاريخية قبل أن تعرف الكتابة، فقد كان الإنسان يقص على أبنائه وأحفاده، أو سواهم، قصص أسلافه ممتزجة بالأساطير[٢]، وذلك قبل أن يتدرج التاريخ في الرقي ويمتزج، بعد مرحلة الرواية الشفهية، بعناصر فنية كالرسم والنقش والنحت وسوى ذلك من عناصر مما يدخل اليوم في عداد الآثار التي تشكل مصدراً من مصادر دراسة التاريخ،[٣] ثم يبلغ مرحلة (التدوين) في حقبة ظهور البدايات الأولى للكتابة (٣٥٠٠-٣٢٠٠ ق.م)، [٤] على أن الانتقال من مرحلة التاريخ الشفهي إلى التاريخ المدون بالكتابة عبر العناصر الفنية (التاريخية) التي تضمنتها النقوش والرسوم التي تركها الإنسان في فجر حضارات العصور التاريخية على الأحجار وجدران المباني، قد عرفته الحضارة السومرية من خلال العناصر التي كانت تشير إلى أعمال الملوك

---

(١) كولنجوود، ر. ج، فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٣.

(٢) هرنشو، ج.، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، ط١، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٨، ص ٢٥.

(٣) Childe, V.G., A short Introduction to Archeaology, Frederic Muller Ltd., Third Impression, London 1960, P. 9.

(٤) Jaspers, Karl, The Orgin and Goal of History, Translated from the German by Michael Bullock, Routledge and Kegan Paul Ltd., London 1953, P. 45.

كبناء القصور والمعابد، وانتصاراتهم في الحروب، أو غيرها من الوقائع التاريخية. إلا أن هذا النوع من التوثيق التاريخي كان يفتقر غالباً إلى الموضوعية لارتباطه بالفكر الديني وإرادة الآلهة، وتمجيده لأعمال الملوك والقادة وإهمال ما سواها من الحوادث التاريخية[١] ومن الجدير بالذكر أن الرسوم والنقوش لم تنته عند تلك المرحلة، بل استمرت كما هو شأن التاريخ الشفهي، في كونها إحدى وسائل حفظ ما هو مهم من الحوادث حتى بعد أن أصبحت الكتابة الوسيلة الرئيسة لهذه العملية.

وقد مثلت الكتابة حداً فاصلاً بين حقبتين من مسيرة الماضي البشري، اقترن إسم اللاحقة منهما بـ (التاريخ) المكتوب، فعرفت بالعصور التاريخية التي يقدر عمرها بخمسة آلاف سنة، [٢] وعرفت السابقة بعصور ما قبل التاريخ، الأمر الذي جعل ذلك الماضي منذ ذلك الحين (معرفة) تستند إلى التدوين وتقترن به، وتستمد أهميتها من (الوعي) أو (الحس) التاريخي الذي تميزت به منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد حضارتا واديي الرافدين والنيل.

وكان لذلك الوعي التاريخي الذي بلغته حضارات وادي الرافدين معطيات رفدت موضوع التاريخ عبر مراحل تطوره في الحضارتين اليونانية الرومانية والعربية الإسلامية، والذي أثرته بعد ذلك الحضارة الغربية الحديثة التي امتلكت (فكراً) تاريخياً أفرز منهجاً للبحث التاريخي منذ أواخر القرن التاسع جعل من التاريخ (علماً) من العلوم، وأنتج فلسفة للتاريخ خلال النصف الأول من القرن العشرين، واللذان كان كلاهما (علم التاريخ وفلسفة التاريخ) يحمل كثيراً من المفاهيم والآليات التي ترجع في جذورها إلى حضارات العراق القديم.

ثانياً: حضارات العراق القديم.. التأسيس لعلم التاريخ

ففي مجال التاريخ كموضوع يهدف إلى إدراك أهمية التعرف على حوادث الماضي التي تخص مجتمعاً بشرياً أو دولة من الدول أو أمة من الأمم، والذي تطور، على يد المؤرخ اليوناني هيرودوتس، ليصبح موضوعاً مهمته البحث والاستقصاء عن تلك الحوادث وتدوينها (Historiography)، وعلى يد المؤرخين العرب المسلمين من بعد اليونان، ويرتقي من بعد ذلك ليصل إلى مرتبة (العلم) بالمنهجية التي وضعها له المؤرخون الأوربيون خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتي توجت بوضع أسس

---

[١] ينظر: كولنجوود، سبق ذكره، ص ٤٤ –٤٥؛ مهران، محمد بيومي، التاريخ والتأريخ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٩٢، ص ٩٤– ٩٥.

[٢] See: Jaspers, op. cit., p.28.

متكاملة للدراسة التاريخية على يد المؤرخين الفرنسيين لانغلو وسنيوبوس في سنة ١٨٩٨ .[١] نقول إن ذلك الإدراك لأهمية التاريخ، وممارسته ممارسة مهمتها البحث والاستقصاء عن أوجه مختلفة من ماضي الإنسان والمجتمعات البشرية، بل وحتى وضع آليات ومفاهيم له اعتمدتها المنهجية التي جعلت من التاريخ علماً، كانت لكثير منه أسس في حضارات العراق القديم، فمن بابل، كما يقول ديورانت، "جاء اليونان الجوالون إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضة، والفلك، والطب، والنحو، وفقه اللغة، وعلم الآثار، والتاريخ، والفلسفة. ومن دويلات المدن اليونانية انتقلت هذه العلوم إلى رومة ومنها إلى الأوربيين والأمريكيين".[٢]

فقد كانت فكرة كتابة التاريخ تبدو أكثر وضوحاً عند السومريين، إذ تضمن نص (أنتيمينا) سرداً تاريخياً لحوادث النزاع بين (لجش) و (أوما)، والاتفاقيات التي جرت بين الطرفين بعد الحروب التي جرت بينهما، والتي تتعلق على سبيل المثال، برسم خط الحدود وتقاسم مياه الري، الأمر الذي يدل على اهتمام انتمينا بتدوين الحوادث الماضية، فضلاً عن الحوادث المتعلقة بحقبة حكمه، اهتماماً استدعى أن يضفى عليه لقب (المؤرخ الأول)[٣] كذلك فإن النصوص التاريخية الكلدانية تشير بمجملها إلى حس تاريخي ووعي بأهمية التاريخ، والتي أراد ملوك العراق القديم من وراء تدوينها تخليد أعمالهم العظيمة.[٤]

من جانب آخر، يبدو أن كتابة التاريخ (Historiography) في العراق القديم كانت هي الأساس الأول للمنهجية العلمية المتبعة في الدراسات التاريخية، التي تقوم على الأسس والقواعد التي وضعها المؤرخون الأوربيون في أواخر القرن التاسع عشر، والتي تستند إلى معيار (لا تاريخ بدون وثائق) الذي أطلقه المؤرخ الفرنسي شارل لانغلوا، والذي يعني أن أية دراسة تاريخية لا تستوي إلا بوجود المصادر الخاصة بها والاعتماد على هذه المصادر،[٥] ذلك أن مؤرخي العراق القديم حينما دونوا تاريخ الملوك والسلالات الحاكمة على شكل جداول، ربما كان أقدمها جداول سلالة أور الثالثة ٢١١٢– ٢٠٠٤ ق.م "لم يعتمدوا على الذاكرة والرواية الشفهية بل أنهم استقوا معلوماتهم من وثائق تاريخية كانت متوفرة لديهم

---

(١) للتفاصيل: يراجع الفصل الثاني (التاريخ والتدوين التاريخي.. تطور الفكر والمناهج) في: النجار، جميل موسى، فلسفة التاريخ، مباحث نظرية، ط١، المكتبة العصرية، بغداد ٢٠٠٧، ص ٤٩–١١٥.

(٢) ديورانت، ول، قصة الحضارة، ج٢ الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٦٢.

(٣) للتفاصيل ينظر: كريمر، صموئيل نوح، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، بغداد ١٩٥٧، ص ٨٩– ١٠٢.

(٤) سلمان، حسين أحمد، كتابة التاريخ في وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد ٢٠٠٨، ص ٢١٦.

(٥) ينظر: لانجلوا وسنيوبوس، المدخل إلى الدراسات التاريخية، ترجمه عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب أسماه (النقد التاريخي)، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٣.

ومحفوظة في خزانات كتب المعابد ودور السجلات والأرشيفات الرسمية... وهذا أول ما نعرفه في تطور التدوين التاريخي عن طريق جمع المصادر والأصول الذي يكوّن المرحلة الأولى في منهج البحث التاريخي".[١]

ومما هو جدير بالذكر أن أجزاءً من هذه السجلات، المكونة من ألواح الطين، قد وصلت إلينا، وكان أقدمها موجوداً بعد عام ٣٠٠٠ ق.م، وكان يحتفظ بها الكهنة في أور، ودونوا فيها اخبار ملوك أور ولكش وارك وسواها من دويلات المدن السومرية، ومراسيم تتويجهم وقصص انتصاراتهم وجنائزهم الفخمة[٢] وبحلول عام ٢٧٠٠ ق.م كان عدد كبير من دور الكتب العامرة قد أنشئ في المدن السومرية، فقد كشفت التنقيبات الآثارية في مواقع (تلو) ومواقع مجاورة لها "مجموعة مؤلفة من ثلاثين ألف لوح موضوعة بعضها فوق بعض في نظام أنيق منطقي دقيق"[٣] أما البابليون، فكانت لديهم "قناطير مقنطرة من كتب التاريخ"[٤] لوجود مؤرخين رسميين لا همّ لهم سوى تسجيل أخبار الملوك وفضائلهم وفتوحاتهم، فضلاً عن تسجيلهم للحوادث المهمة التي تقع في كل مدينة من المدن. كذلك كان للآشوريين مكتبات تضم الكتابات التاريخية من بين ما تضمه من كتابات. وقد اشتهرت بلاد آشور بمكتبة آشور بانيبال التي احتوت (٢٦) ألف لوح في محتلف صنوف المعارف. وقد صنفت تلك الألواح وفهرست ليسهل الوصول إلى محتوياتها، وكان كثير منها منسوخ من ألواح أخرى أقدم منها، ذلك أن آشور بانيبال كان يبعث برسله إلى المدن البابلية للحصول على المؤلفات الفريدة في موضوعاتها لكي يرفد بها مكتبته.[٥]

إن كتابة التاريخ في العراق القديم لم تقتصر في تأسيسها لبعض القواعد التي استندت إليها المنهجية الحديثة للدراسات التاريخية على مبدأ الرجوع إلى المصادر فحسب، والذي عرفه منهج البحث التاريخي الحديث اختصاراً بعبارة (لا تاريخ بدون وثائق)، ذلك أن مدوني التاريخ في العراق القديم وضعوا أسساً وقواعد أخرى سواها، من قبيل المنهجية الحولية لتسجيل حوادث الماضي التي لاتزال تعتمد من قبل بعض المؤرخين، ومن قبيل تعليل حوادث التاريخ وتفسيرها، والأمانة العلمية التي لا مناص للدراسات التاريخية الموضوعية من اتباعها، ومن مثل تدوين شتى جوانب الحوادث التاريخية،

---

[١] باقر، طه وعبد العزيز حميد، طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، ط١، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل ١٩٨٠، ص ٢١.

[٢] ديورانت، سبق ذكره، ص ١٧، ٣٦.

[٣] نفسه، ص ٣٥.

[٤] نفسه، ص ٢٣٨.

[٥] ينظر: ديورانت، نفسه، ص ٢٨٤؛ سلمان، سبق ذكره، ص ٧٣.

كالجوانب الاجتماعية والاقتصادية، وعدم الاقتصار على تسجيل التاريخ السياسي وتاريخ الحروب والمعارك.

فقد كانت التواريخ (Chronicles)، التي تضمنت تدوينات مهمة لحوادث الماضي على وفق تسلسلها الزمني منذ القرن الثامن قبل الميلاد إلى حكم الملك السلوقي سلوقس الثالث ٢٢٥-٢٢٣ ق.م، ممارسة عرفها البابليون والآشوريون، فضلاً عن المصريين والعبرانيين،[١] وكانت هذه (التواريخ) تنظم غالباً على وفق الطريقة (الحولية)، التي يذكر فيها المؤرخ أو مدون النص التاريخي حوادث كل سنة لوحدها، ثم ينتقل إلى السنة التي تليها، سارداً الحوادث التاريخية المهمة كالحملات الحربية، ووفيات الشخصيات البارزة، ووقوع الكوارث الأرضية، وسواها من الحوادث، الأمر الذي شكل نواة لمنهجية التدوين الحولي للتاريخ الذي اتبعه، فيما بعد، بعض المؤرخين الرومان والعرب المسلمين في كتابة التاريخ، وانتهجه سواهم من المؤرخين حتى الوقت الراهن.[٢]

أما تعليل الحوادث التاريخية ومحاولة كشف أسبابها لإلقاء مزيد من الضوء عليها، وهو الممارسة المنهجية التي تشكل خطوة مهمة من خطوات منهج البحث التاريخي الحديث،[٣] فيمكننا أن نتلمس بداياته في حضارات العراق القديم من خلال النصوص التاريخية السومرية والبابلية والآشورية. والتعليل، على إطلاقه، قديم لدى الإنسان قدم الفكر الفلسفي، بل هو في واقع الحال أقدم منه، ويقترن وجوده بوجود الإنسان، إذ لم يعدم الإنسان منذ خلقه في التفكير في العلاقات السببية بين بعض ظواهر الطبيعة وبعضها الآخر، وإن كان إرجاع المسببات إلى أسباب ميتافيزيقية يطغى لديه على ما سواها من أسباب.[٤]

ومن ثم نجد أن المحاولات الأولى لتعليل أصول الأشياء وأصل الإنسان والحياة انبثقت من لدن الكتبة والأدباء في العراق القديم، ومارس من دوّن التاريخ فيما بعد من هؤلاء بدايات تعليل حوادث التاريخ وتفسيرها في بعض الأحيان[٥] فقد تضمنت الأدبيات السومرية مثل تلك الممارسة النقدية،

---

[١] ينظر: هرنشو، ج.، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، ط١، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٨، ص٢٦.

[٢] ينظر: باقر، سبق ذكره، ص ٢٣؛ النجار، سبق ذكره، ص ٥٢.

[٣] يراجع الفصل الثالث الموسوم بـ (التعليل والإيضاح) في كتاب: عثمان، حسن، منهج البحث التاريخي، ط٤، دار المعارف، مصر ١٩٨٠، ص ١٨٥- ١٩٠.

[٤] النجار، جميل موسى، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠٠٤، ص ١٤.

[٥] ينظر: سلمان، سبق ذكره، ص ١٤٧، ٣٣٤.

كالمرثية السومرية الخاصة بالدولة الأكدية التي عللت سقوط هذه الدولة وأفول نجمها، بعد ازدهار معطياتها الحضارية، بغضب الإله إنليل "الذي أرسل، كما يقول الشاعر السومري، جحافل الأعداء ضد الأكديين لأنهم دنسوا معبده الشهير في نفّر"،[١] الأمر الذي يفسر طغيان النزعة الدينية على المدونات التاريخية في العراق القديم، ذلك أن تلك المدونات أرجعت حوادث الماضي عند تفسيرها وتعليلها في كثير من الأحيان إلى الأقدار وإرادة الآلهة، ومن ثم أصبحت أعمال الإنسان على وفق هذا التعليل من جهود الآلهة وليست من جهوده، مما جعل غاية التاريخ معرفة الإنسان بالآلهة، وليس معرفته بذاته. [٢]

على أن التدوين التاريخي في بلاد بابل وآشور اتخذ منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد أبعاداً فكرية جعلته أكثر قرباً من المفهوم (العلمي) الحالي للتاريخ، لما كان يتصف به من تنظيم وتسلسل منطقي وتحليل للحوادث،[٣] على الرغم من ابتعاد بعض الكتابات التاريخية عن الموضوعية لاسيما في وصف المؤرخين لمراسيم تتويج الملوك وانتصاراتهم الحربية[٤] وقد استمر هذا التقدم في التدوين التاريخي لمدة خمسة قرون قبل أن يتوج بقيام الكاهن البابلي بيروسوس (برعوشا) بتأليف كتاب جامع لتاريخ بلاد بابل منذ الخليقة والطوفان إلى فتح الاسكندر لهذه البلاد في سنة ٣٣١ ق.م. وقد مارس برعوشا في تاريخه هذا أساليب التحليل والنقد في استعراضه للحوادث التاريخية، إذ "أنكر قصة سمير أميس الأسطورية... لعدم معقولياتها في رأيه وحكمه، ونسب تأسيس بابل إلى ملك شجاع.[٥]"

من جانب آخر يتعلق بالأمانة العلمية التي يوجب منهج البحث التاريخي الحديث على المؤرخ أن يتصف بها في نقله للحوادث التاريخية وتدوينه لها، [٦] نجد أن جذور هذه الممارسة المنهجية التي تشكل عاملاً من عوامل الموضوعية التي تتطلبها الدراسات التاريخية، تمتد إلى كتابات الكتاب والمؤرخين في العراق القديم، إذ يظهر من ملاحظات النساخ البابليين في حواشي بعض النصوص المدونة في شتى الموضوعات حرصهم على الدقة والأمانة في النقل، وإدراجهم لما يفيد أن الناسخ نقل النص بكل دقة من النسخة الأصلية، وأنه يطلب من الآلهة أن تنزل لعناتها على من يحاول تحريف النص أو إتلافه. ويمكننا أن نلاحظ مثل هذه الدقة والأمانة في النقل لدى المؤرخين البابليين الذي تضمنت كتبهم

---

[١] نفسه، ص ١٦٧.

[٢] النجار، فلسفة التاريخ، ص ٥٤.

[٣] نفسه، ص ٥٣؛ سلمان، سبق ذكره، ص ٢١٦.

[٤] ديورانت، سبق ذكره، ص ١٧.

[٥] النجار، فلسفة التاريخ، ص ٥٣؛ سلمان، سبق ذكره، ص ٣٤٦.

[٦] يراجع: عثمان، سبق ذكره، ص ١٨.

ممارسات موضوعية في نقلها للحوادث التاريخية في كثير من الأحيان، وعدم تحيزهم لبلادهم في ذلك، فقد ذكر أولئك المؤرخون خسائر البابليين في بعض المعارك، ولم يحاولوا إخفاءها أو غض الطرف عنها محاباة لبلادهم.[١]

ومما هو جدير بالذكر أن الكتابات التاريخية في العراق القديم لم تقتصر، منذ عهد مبكر، على تدوين تاريخ الحروب والتاريخ السياسي بوجه عام، بل دوّن بعضها جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، على نحو يمكننا من القول إن التوجه نحو تدوين التاريخ الحضاري وعدم الاقتصار على تدوين التاريخ السياسي وتاريخ الحروب والمعاهدات، والذي كان رائده فيلسوف عصر التنوير ماري أرويه دي فولتير في القرن الثامن عشر ومدرسة الحوليات الفرنسية بعد ذلك في القرن التاسع عشر، قد وجد أساساً له في الكتابات التاريخية في العراق القديم. وكان الغرض الذي رامه المؤرخون في العراق القديم من وراء ذلك فيما يبدو، هو تتبع أصول الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية وتطورها تحقيقاً للأهداف التي تتوخاها دراسة التاريخ[٢] منذ عصر فولتير في القرن الثامن عشر. فالمدونات الملكية الأولى التي كتبها المؤرخون السومريون لم تقتصر على تدوين تاريخ الحروب، بل تناول بعضها أيضاً التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، "فوثيقة اوروانميكينا (uru-inim-gina) تعد من أثمن الوثائق القديمة في تاريخ التطور الاجتماعي والاقتصادي، بل أنها سجل خاص بالاصلاح الاجتماعي..." [٣]

ثالثاً: حضارات العراق القديم... جذور فلسفة التاريخ

ارتبط الوعي التاريخي المبكر للإنسان في العراق القديم ارتباطاً وثيقاً، كما يبدو، بتطلعات الإنسان نحو إدراك حقيقة الكون والحياة، وبحثه عن إجابات لتساؤلاته عن بدايات الخلق وغاياته، وخلق الكون وأسراره، وماهية فعل الإنسان وغاياته، أوعن سوى هذه وتلك من تساؤلات فلسفية كان الانسان يبحث عن إجابات لها من خلال استقصائه لحوادث الماضي، من بين ما يبحث فيه من وسائل تجيبه عن تلك التساؤلات.

يستدل على ذلك أن الكتبة والأدباء في العراق القدم كانت لهم محاولات، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، لتعليل أصول الأشياء والظواهر وأصل الإنسان والحياة. وبدا واضحاً من خلال تدوين أولئك الرواد من الكتبة والأدباء لحوادث الماضي التي تتعلق بالأنظمة الاجتماعية وتطورها وتتبعهم لأصولها،

---

[١] للتفاصيل: سلمان، سبق ذكره، ص ٧٦، ٣٠٠، ٣٠٤.

[٢] ينظر: باقر، سبق ذكره، ص ١٨.

[٣] سلمان، سبق ذكره، ص ١٥٦.

وتفسيرهم لتلك الحوادث ومحاولاتهم تعليلها في بعض الأحيان بهدف "ربط الماضي بالحاضر ليفهم هذا الحاضر [١]" أنهم كانوا يضعون الأسس التي قامت عليها فلسفة التاريخ التأملية في أواخر القرن التاسع عشر، والتي سعت إلى النظر الفلسفي التأملي في معطيات التاريخ (العام)، ومحاولة إيجاد تصور شامل من خلاله عن مسيرة الماضي وطبيعة أنماطها وقوانينها لمعرفة حقيقة الحاضر ومحاولة استشراف المستقبل [٢] ومن ثم يبدو أن تلك الممارسة المعرفية الفلسفية للمؤرخين في العراق القديم كانت المنطلق لما توصل إليه الفيلسوف الألماني المعاصر كارل ياسبز في أوائل القرن العشرين حينما قرر أن "التاريخ ليس الذاكرة التي تقوم بمهمة كشف الماضي فحسب، بل هو وسيلة معرفة الواقع المعاش أيضاً، والأساس الذي يقوم عليه التخطيط للمستقبل".[٣]

وفي هذا السياق يمكن القول أن استقصاء الجذور البعيدة للمشكلات أو الحوادث التي كان يتعرض لها المجتمع في العراق القديم بهدف فهمها – وهذا هو أول خطوات فلسفة التاريخ – يرجع إلى حدود سنة ٢٤٧٥ ق.م، ففي النص الذي يعود إلى أنتمينا، أحد أمراء أسرة كيش الأولى، لم يكتف واضع النص بذكر تفصيلات النزاعات والحروب التي جرت بين مدينته ومدينة أوما المجاورة، بل يتجاوز ذلك إلى استقصاء الجذور العميقة للنزاع بين المدينتين الذي يعود إلى أجيال عديدة سابقة، والتعرف على المحاولات التي كانت تجري في السابق لإنهائه،[٤] بما يؤكد أن كاتب النص يحاول جاهداً أن يوظف الماضي لعلاج مشكلات الحاضر، وربما استشراف المستقبل. وفضلاً عن ذلك يمكننا أن نلاحظ أيضاً أن ربط الماضي بالحاضر، وهو العمل الذي يدخل في سياقات (فلسفات) التاريخ التأملية على مختلف نظرياتها الحديثة، قد وجد عند المؤرخين الآشوريين الذين لم يقتصروا في تدوين كتاباتهم الرسمية الملكية على تسجيل أعمال الملوك من بناء وتعمير وحملات حربية، بل تجاوزتها غالباً إلى ذكر حوادث الماضي وربطها بالأعمال التي قام بها الملك.[٥]

ولم تختلف فلسفات التاريخ في القرن العشرين، في أحد بواعثها المهمة المتمثل بحلول عصور التدهور والانحطاط للحضارات والدول، والتي تستدعي اللجوء إلى استنطاق التاريخ لفهم واقع التراجع

---

[١] باقر، سبق ذكره، ص ١٩.

[٢] لتفاصيل أكثر عن فلسفة التاريخ التأملية ينظر: النجار، فلسفة التاريخ، ص ٢٤.

[٣] Jasper, Karl, The Origin and Goal of History, Translated from the German by Michael Bullock, Routledge and Kegam Paul Ltd., London 1953, P. 231.

[٤] ينظر: سلمان، سبق ذكره، ص ٦٨.

[٥] ينظر: باقر، سبق ذكره، ص ١٩.

والتطلع لمعرفة ما يخبئه المستقبل، عن تماثل مع باعث مناظر كان يحدو بعض كتبة ومؤرخي العراق القديم في كتاباتهم التاريخية (الفلسفية)، بما يجعلها الأساس لتلك الفلسفات. فقد عبرت فلسفات التاريخ الأوربية منذ أواخر القرن الثامن عشر عن شعور من قبل الفلاسفة الألمان بصعوبات الظروف السياسية التي عاشتها أوربا خلال عصر الثورة الفرنسية والحروب النابليونية، الأمر الذي دفعهم إلى وضع مؤلفات تستقرئ التاريخ (العام) لفهم الحاضر واستشراف المستقبل. ثم لاحظ بعض الفلاسفة والمؤرخين الأوربيين أن الرؤية الفلسفية التأملية للتاريخ، متمثلة بتفسيره وفهم إيقاعه واتجاهات مسيرته، ارتبطت غالباً بعصور التدهور والانحطاط، التي كانت صعوباتها تحفز المفكرين والفلاسفة على التأمل في الماضي بهدف إدراك عوامل التدهور وجذوره، ومحاولة فهم الحاضر، وما سوف يؤول إليه في المستقبل[١] أما الأساس الذي يمثل باعث التدهور والانحطاط الذي نفخ الروح في فلسفة التاريخ عند الأوربيين، فيمكن أن نجده في الأدبيات السومرية، فعندما تعرضت أكد وعموم بلاد سومر إلى مصيبة كبرى نتيجة لغضب الإله إنليل الذي أرسل جحافل الأعداء الكوتيين من جبال زاغروس ليخربوا بلاد سومر، طفق الكتبة والأدباء يتأملون من خلال قصائدهم ونصوصهم في أسباب هذه الطامة التي حلت ببلادهم، والتي ضمنوها جوانب تاريخية مهمة في كيفية ظهور الامبراطورية الأكدية ووصول سرجون الأكدي إلى العرش وحصوله على السلطة بعد ضمه كيش والوركاء، وجوانب أخرى يمكن أن تندرج في إطار استشراف المستقبل.[٢]

وفي الإطار نفسه كانت قصيدة كابتي إيلاني مردوخ[٣] الطويلة التي دونت على خمسة ألواح تشير إلى أن الحقبة الزمنية التي عاشها مردوخ كانت حقبة عصيبة مضطربة حدثت فيها غزوات أجنبية للمدن البابلية، كغزوات السوتيين في زمن الملك أدد – أبل – أدنيم (١٠٦٧-١٠٤٦ ق.م)، التي ألحقت أضراراً كبيرة بتلك المدن، ومنها مدينة سبار ومعبد إله الشمس فيها، وتهديدات العيلاميين للمدن البابلية. وقد تضمنت القصيدة ذكراً لتاريخ بابل القديم الذي كان مردوخ عارفاً به ومطلعاً عليه. فالأوضاع السيئة في بابل، كما ورد في القصيدة، "لم تكن كذلك في الماضي وذلك حينما قارن بين حالة بابل في تلك العصور القديمة يوم كانت تحتل مركز الصدارة بين مدن العالم القديم، وما آلت إليه في زمانه من

---

[١] للتفاصيل: النجار، فلسفة التاريخ، ص ٣٠-٣١.

[٢] ينظر: سلمان، سبق ذكره، ص ٣٧٣- ٣٧٧.

[٣] كابتي إيلاني مردوخ: هو شاعر، وربما كان كاهناً أو وجيهاً من علية القوم، تدور قصيدته حول إله الطاعون والأمراض والحرب والصيد (إيّرا) الذي كان له معبد في (كوثى)، ويرجح أن مردوخ عاش خلال فترة متأخرة من العصر الكيشي. للتفاصيل: سلمان، سبق ذكره، ص ٣٨٧-٣٩٤.

خراب ودمار على أيدي المحتلين".[١] ومن ثم فإن استقراءه للماضي ومعرفته بالحاضر مكّناه من التوصل إلى رؤية في استشراف المستقبل تذهب إلى أن الأوضاع المتردية التي كانت تمر بها بلاد بابل هي أوضاع مؤقتة لابد لها من أن تزول لتزدهر البلاد من جديد[٢] وهكذا نجد أن هذا هو عين ما تمارسه أية فلسفة تأملية حديثة للتاريخ.. نظرة تأملية للماضي، يليها تحديد للواقع الماثل، فتصور يرسم ملامح المستقبل. ومن ثم يمكن القول أن أقدم فلسفات التاريخ هي تلك التي أسس لها السومريون والبابليون والآشوريون من حيث بواعثها ومغزاها، الأمر الذي قد يدحض الرأي الذي يدور حول أسبقية كتابات العبرانيين في وضع تصورات عن مسيرة التاريخ البشري وحركة الإنسان وغاياته عبرها، مستمدة لكثير من جوانبها من الفكر الديني لعقيدتهم ذي الأصل السماوي.[٣]

من جانب آخر، نجد أن كثيراً من آليات فلسفة التاريخ التأملية الحديثة له جذور في كتابات المؤرخين والأدباء في العراق القديم، مثل: مفهوم التاريخ العام، وتحقيب التاريخ، والعناية الإلهية، والتعاقب الدوري، وتأثير العامل الجغرافي في تحديد مسارات التاريخ.

ففيما يتعلق بمفهوم التاريخ العام (Universal History). أو ما يعرف أيضاً بالتاريخ العالمي، أو التاريخ الكلي، وهو المصطلح الذي وضعه المؤرخون النصارى في العصر الوسيط، والذي يعني أن هناك تاريخاً واحداً للبشرية يبدأ بالخلق وينتهي بالحساب، كيما يتوافق مع التفسيرات المسيحية الدينية للتاريخ التي تستند إلى عقيدة العناية الإلهية أو التخطيط الإلهي..[٤] نقول أن التفسير الديني الذي ارتكز إليه مفهوم التاريخ العام للحوادث التاريخية كان معروفاً عند السومريين والبابليين والآشوريين. فقد كانت رؤية كابتي إيلاني مردوخ التي سبق توضيحها تشير إلى أن التاريخ له معنى وأنه يسير إلى هدف معين[٥] كما حاول كثير من الكتبة والمؤرخين في العراق القديم، لاسيما الآشوريين منهم، "تدوين وتفسير تاريخ العالم منذ بدء الخليقة. وهناك أمثلة على ذلك في بعض القصص المتعلقة بالطوفان وأصل نظام الحكم وأصل الأشياء"،[٦] فقد تضمنت جداول الملوك والسلالات الحاكمة تاريخاً يرجع إلى أبعد الأزمان مما يمكن عدّه أولى المحاولات في تدوين التاريخ العام. كما روت القصة أو الأسطورة المعروفة باسم

---

[١] نفسه، ص ٣٩٦.

[٢] نفسه، ص ٣٩٧.

[٣] قارن مع ما أورده بهذا الصدد: النجار، فلسفة التاريخ، ص ٥٤، سلمان، سبق ذكره، ص ٣٩٤، ٣٩٥.

[٤] للتفاصيل: النجار، فلسفة التاريخ، ص ١٤٧.

[٥] يراجع أيضاً: سلمان، سبق ذكره، ص ٣٩٤، ٣٩٥.

[٦] باقر، سبق ذكره، ص ١٩.

ملمحة (اتراحاس) خبر خلق الإنسان والأسباب التي دعت الآلهة إلى خلقه، "وهي رواية أكثر تفصيلاً من الرواية الواردة في اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش"[١] كذلك وردت في النص الذي يعود إلى انتمينا، في حدود ٢٤٧٥ ق.م، تفصيلات عن النزاعات والحروب التي جرت بين مدينته ومدينة أوما، تعود إلى أجيال عديدة سابقة،[٢] "ويقص علينا بروسس، أشهر المؤرخين البابليين وأنبههم ذكراً، في اطمئنان العالم الواثق من علمه، تفاصيل وافية عن خلق العالم، وتاريخ الإنسان في عهده الأول"، [٣] حتى حكم الاسكندر المقدوني وحلفائه.

وطالما كان مؤرخو العراق القديم تمثلوا فكرة التاريخ العام ومارسها كثير منهم، فإنهم قد تمثلوا في الوقت نفسه (تحقيب = Periodization) التاريخ التي تتطلبها الفكرة الأولى وتستلزمها، ذلك أن التحقيب الذي يعني تقسيم التاريخ، سيما التاريخ العام، إلى حقب لتسهيل دراسته واستيعابه، قد كتبت على أساسه قوائم الملوك والسلالات الحاكمة في العراق القديم منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، والتي ربما كان أقدمها يرجع إلى عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م)، إذ تحدثت تلك الجداول عن (طوفان) يفصل بين حقبتين في حكم البلاد، الأولى منها قبل الطوفان، والأخرى بعده، والتي تبدأ بنزول الملكية من السماء مرة ثانية إلى كيش ثم الوركاء ثم أور. ومن ثم يمكن القول إن هذا التقسيم كان الأساس الذي بنيت عليه فكرة (تحقيب التاريخ) قبل أن تتطور لتصبح في الوقت الحاضر موضوعاً مهماً من مباحث علم التاريخ وفلسفة التاريخ النقدية.[٤]

وفيما عدا ما مرّ بنا، يمكن أن نشير أيضاً إلى مفاهيم ورؤى أخرى عرفها في القرنين الأخيرين الفكر الفلسفي التاريخي الغربي، وتبنتها نظرياته ومباحثه في مجال فلسفة التاريخ التأملية، لاسيما التفسيرات الدينية منها، كان لها أصل في كتابات الأدباء والمؤرخين في العراق القديم. ففي الوقت الذي نجد فيه أن المدونات التاريخية في العراق القديم، لاسيما البابلية والآشورية منها، تحدثت عن رعاية الآلهة للبشر عند سردها لحوادث الماضي البشري،[٥] نجد أيضاً أن فكرة العناية الإلهية كان لها دور بارز في التفسير الديني المسيحي للتاريخ منذ عهد القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م). فالعناية الإلهية

---

[١] نفسه، ص ٢١.

[٢] سلمان، سبق ذكره، ص ٦٨.

[٣] ديورانت، سبق ذكره، ج٢، ص ٢٣٨.

[٤] للتفاصيل عن التحقيب يراجع الفصل الرابع من الباب الأول المعنون بـ (التحقيب التاريخي.. تطور المفهوم الغربي وملامح التمثل العربي) في: النجار، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية، ص ٥٣-٩١.

[٥] ينظر: هرنشو، سبق ذكره، ص ٢٦- ٢٧.

وإن كانت اعتقاداً مشتركاً لأتباع الديانات السماوية، إلا أن القديس أوغسطين كان أول من أدخل هذا الاعتقاد في عملية تفسير التاريخ، وبلوره كنظرية في فلسفة التاريخ عرفت بـ (نظرية العناية الإلهية)، إذ لابد من تدخل إلهي في مسيرة التاريخ البشري كيما تنتظم هذه المسيرة.[١]

كما أن هناك مفاهيم أخرى لفلسفة التاريخ الحديثة من الممكن أن نرجع بداياتها إلى مدونات العراق القديم، وأهمها تفسير اتجاهات حركة التاريخ العام، والتفسير الجغرافي له. فتفسير اتجاهات حركة التاريخ العام في فلسفة التاريخ الحديثة يتوزع على ثلاث نظريات، هي: التراجع، والتعاقب الدوري، والتقدم[٢] ومن بين هذه النظريات الثلاث يمكننا أن نرصد بوضوح الأصل العراقي لنظرية التعاقب الدوري في أدبيات العراق القديم، ذلك أن فكرة الحركة الدورية في الفكر التاريخي العراقي القديم كانت ترتبط بـ (حركة الأفلاك)، حيث أدرك العراقيون منذ العصر الأكدي أن الزمن أو التاريخ تيار مستمر يتكون من حقب ذات طابع حيوي دوري، تعود فيه كل حقبة بتوقيت فلكي إلى نقطة انطلاقها الزمنية الأولى، وعادة ما تبدأ الدورة عندهم بالإله ثم السلالة ثم الدولة ثم الحاكم فالكوكب، في حركة مستمرة لا تتوقف صعوداً ونزولاً[٣] وعلى وفق هذا تضمنت ملحمة إله الطاعون (إيّرا)، التي أشرنا إليها من قبل، رؤية مدونها لهدف التاريخ وعوامل حركته ودورانه بين النهوض والانحطاط، فالتاريخ عنده يتحرك (بشكل دوري)، فعصر الازدهار والنهضة تتبعه مرحلة من التراجع والإنهيار الحضاري التي تؤدي بدورها إلى اضطراب المعايير، وحدوث تحلل اجتماعي وغزو أجنبي، إلاّ أن ذلك – في نظرة استشراف للمستقبل – سوف تتبعه مرحلة نهوض جديدة في المجالات كافة... وهكذا دواليك[٤] أما التفسير الجغرافي للتاريخ، الذي شكّل نظرية في فلسفة التاريخ الحديثة ترى أن العوامل الجغرافية، من موقع جغرافي وتضاريس ومناخ وسواها من عوامل، هي التي توجه مسارات التاريخ العام وتتحكم فيها،[٥] الأمر الذي يبدو أن جذوره تضمنتها الكتابات التاريخية للمؤرخ البابلي برعوشا (بيروسس) التي كانت تربط بين البيئة الجغرافية وحركة التاريخ، وتفصّل في ذكر جغرافية العراق وأنهاره ومحاصيله الزراعية.[٦]

---

[١] للتفاصيل: النجار، فلسفة التاريخ، ص ١٤٦-١٤٧.

[٢] للتفاصيل: نفسه، ص ٢٣٠-٢٥٥.

[٣] الجابري، علي حسين، فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر، ق١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٣، ص ٢٩.

[٤] نفسه، ص ١٤؛ أوبنهايم، ليو، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١، ص ٣٤٥.

[٥] للتفاصيل: النجار، فلسفة التاريخ، ص ١٧٢- ١٧٩.

[٦] ينظر: سلمان، سبق ذكره، ص ٣٥٧.